١ ـ دور العوامل السياسية والعسكرية في سقوط الأمبراطورية الرومانية

كانت مشكلة وراثة العرش الروماني من العوامل الرئيسة التي سببت الكثير من الفوضى السياسية وادت إلى عدم الاستقرار في انحاء الامبراطورية الرومانية فلم يتطور خلال تاريخ الامبراطورية الطويل نظام ثابت لوراثة العرش، فكان الصراع بين المتنافسين على العرش يتكرر بعد وفاة كل امبراطور.

ولم تكن هذه المشكلة جديدة بالنسبة إلى الامبراطورية، بل هي من اهم ما تيمز به تاريخها. والشيء الجديد في الامر هو ان الفوضى التي كانت ترافق عادةً اختيار الامبراطور الجديد، لم تعد تقتصر على روما، بل تعدتها إلى اقاليم الامبراطورية الاخرى، اضف إلى هذا ان الجيش اخذ في التدخل اكثر فاكثر في الشؤون السياسية، بل وحتى في اختيار الامبراطور. وقد ادى هذا التدخل إلى سلسلة من الحروب الداخلية التي سببت بدورها تدمير الممتلكات ونهب المدن وخراب الريف، والحق هذا كله الاثر البليغ بالانتاجين الزراعي والصناعي وبالحياة العامة.

وفي الوقت الذي ازداد فيه تورط الجيش في الشؤون السياسية فان تغير واضح طرأ على تركيبه، فالجيش الروماني كان يتألف من المواطنين الرومان وكان في الواقع مدرسة يتعل الفرد واجبات المواطنة الرومانية. وكان يقوده ضباط رومانيون جاءوا من اقاليم ذات صبغة رومانية اصيلة. ويقضي الضابط او الجندي ما يقارب العشرين عاماً في الخدمة العسكرية يتقاعد بعدها، فيُمنح راتباً تقاعدياً ملائماً او قطعة من الارض مناسبة. وهكذا يعود إلى الحياة العامة. ولهذا كان الجيش الروماني بالنسبة للفرد وسيلة لتحقيق النجاح الاقتصادي والاجتماعي. واجتذب اليه خيرة المواطنين الرومان. ودأب الشباب في تهيئة انفسهم للخدمة العسكرية، في حين تمتع المحاربون القدماء بالعز والاحترام.

ولكن الجيش الروماني منذ اوائل القرن الثاني لم يعد بهذا الشكل فلم يكن العنصر الروماني هو العنصر الوحيد الذي يتألف منه الجيش، بل دخلته عناصر اخرى غير رومانية، اما العناصر الرومانية التي كانت لاتزال فيه فقد جاءت من اقاليم رومانية نائية ومن مناطق ريفية بشكل خاص وكان تأثرها بالمدنية الرومانية محدوداً وتفهمها للمُثل الرومانية وللنظام السياسي الروماني ضئيلاً جداً.

فالسلم والرفاه اللذان سادا الامبراطورية الرومانية في القرن الاول للميلاد جعلا سكان المدن الرومانية يفضلون حياة الاستقرار وارغد على الحياة العسكرية المضنية والمحفوفة بالمخاطر. هذا من جهة، ومن جهة اخرى لم تعد الخدمة العسكرية تتعدى حراسة الحدود،

ولم يعد فيها ما يشبع روح المغامرة والحرب. ولهذا انصرف الكثيرون من الرومان عن الخدمة في الجيش، التي اصبحت مملة رتيبة.

وجوبهت الحكومة الرومانية بهذا العزوف عن الخدمة العسكرية فاضطرت إلى قبول انخراط من يود الانخراط فيه من دون تمييز. وفقد الجيش الروماني تدريجياً صلته بالسكان الاكثر اصطباغاً بالصبغة الرومانية. وصار رجاله يمثلون فئة منفصلة تتحكم فيها النزعة الاقليمية اكثر مما تتحكم فيها روح المواطنة الرومانية. ولم ينصرم القرن الثاني حتى صار الجيش الروماني يتألف كله تقريباً من عناصر ريفية: رومانية، وغير رومانية، لم تمسها الحضارة إلا قليلاً. وأصبح ولاء الجندي لا يتعدى حدود كتيبته وضباطه.

حدث كل هذا في الوقت الذي ازدادت فيه اهمية الجيش نتيجة للصراع الداخلي والحروب الاهلية من ناحية، وازدياد الاخطار الخارجية التي كانت تواجهها الامبراطورية من ناحية اخرى.

وشعر الاباطرة باهمية الجيش بالنسبة لهم، فحاولوا استمالة رجاله بكل السبل وقد سار اغلبهم على المبدأ القائل(اجزل العطاء للجيش ولا تعبأ بالآخرين).

وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية تفقد صبغتها الدستورية القائمة. ولما كان الاباطرة يعتمدون على الجيش وحده للابقاء على سلطانهم، فقد دفعهم هذا إلى ارضاء الجيش من ناحية، وشجعهم على التجاوز على القوانين الرومانية وحقوق المواطنين الرومانيين من ناحية ثانية، والاستخفاف بالمؤسسات الدستورية من ناحية ثالثة.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث تحكم الجيش تحكماً مطلقاً في تولية الاباطرة وخلعهم. بل انه قام في كثير من الاحيان برفع رجاله إلى المنصب الامبراطوري وكان فريق من هؤلاء رجالاً طيبين وجنوداً شجعان، ولكنهم كانوا جميعاً ضباطاً صغاراً من اصول ريفية، وذوي تعليم محدود، جاءوا من ثكناتهم ليتولوا مهام خطيرة تنوء بها كواهل اعظم السياسيين.

ويعد بعض المؤرخين ما حدث في الجيش ثورة اجتماعية ثأر فيها الريف الروماني والعناصر غير الرومانية، عن طريق الجيش، من البرجوازية وسكان المدن الرومانية المترفين والمتحضرين.

وتعرضت الامبراطورية الرومانية إلى مخاطر خارجية جسيمة منذ اوائل القرن الثالث للميلاد. فالفوضى التي سادت الامبراطورية، شجعت القوى الخارجية على التجاوز على

حدودها والتغلغل في ارصها. ففي الشرق قامت اسرة حاكمة جديدة كالامبراطورية الساسانية في الشرق. اما في الغرب توغلت القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية. والواقع ان وضع الامبراطورية الدفاعي كان حرجاً إلى درجة اضطرت معه الحكومة الرومانية إلى صرف مبالغ طائلة على تحصين الكثير من المدن الداخلية ومن ضمنها روما نفسها.